الإسلام
وتحدّيات الحياة العصريّة

حسن صعب

لماذا نعنى نحن بأثارة هذا الموضوع الاسلامي الاساسي ؟ اليس موضوعا دينيا ؟ وما دام كذلك ، فما هو شأن اهل الدنيا به ؟ ولماذا لا نتركه لرجال الدين وحدهم ؟ الانه موضوع مصيري يعنينا جميعا ، او لان البحث الفكري او الاجتهاد العقلي مفتوح في الاسلام للجميع ، لا فرق في ذلك بين علماء الدنيا وعلماء الدين ؟ ان الاسلام ، كما وصفه المستشرق الانكليزي غيب ، « هو ديمقراطية روحية مطلقة » . والبحث والتفكير فيه واجب على كل فرد وجوبَ العبادة . بل ان المفكر في محرابه ، والعالم في مختبره ، متقربان الى الله بالتأمل والبحث تقربَ العابد اليه في صومه وصلاته. واذا فُهم الاسلام بحقيقته هذه ، كان دائما طليعة حركة الفكر ومقدمة حركة الحضارة .

ثم ان الاسلام هو صدق مع الله ومع النفس ومع سائر البشر . والانسان الصادق لا يدع سؤالا واحدا لا يسأله ليحاول الاجابة عليه . وتكفي مطالعة القرآن من جديد لاكتشاف الحوار الازلي فيه بين الله والانسان . والثقافة هي هذا الحوار المتواصل بين الانسان وخالقه ، وبين الانسان واخيه الانسان ، وبين الانسان والطبيعة . وقد بقي الاسلام ثقافة خالقة ما دام محاورا . وتوقف عن الخلق منذ فُرض عليه وقف الحوار ووقف الاجتهاد. وجهاد الاسلام في العصر الحديث لم يكن جهادا لاستعادة الحرية فحسب ، بل كان ايضا جهادا لمعاودة حركة الخلق ، اي لاستئناف الحوار ، وطلب الاجتهاد .

ومعاودة الاسلام هذه الحركة رهينة بنظرته الجديدة لنفسه ، ونظرته المتجددة لتحديات الحياة العصرية له . ونحن نتجدد مع تجدد هاتين النظرتين ونتجدد مع تجدد الاسئلة التي نثيرها ، ونحاول الاجابة عليها في كل يوم بل في كل لحظة . فاذا توقفنا عن التساؤل آذنت نهايتنا .

ونحن نطرح موضوعنا بصدق لا محدود ومعرفة محدودة . ونثيره منطلقين من موقف منهجي تلمسناه من الآية الكريمة : « كل شيء هالك الا وجهه » . ونفهم منها ان كل شيء قابل للتغيير الا ذات الله وحقيقته وكلمته العلوية المطلقة . وما بنا من علوي وروحي فمن خير الله المطلق ، وما بنا من متغير فمن انفسنا ومن حولنا الطبيعي .

وننطلق من هذا الموقف المنهجي محاولين ان نبسط لانفسنا موضوعا هو في غاية

التعقيد . لان تحديات الحياة العصرية للاسلام تحديات متعددة الجوانب، ومتنوعة الوجوه. فهي تحديات تاريخية ، وعقائدية ، وفلسفية ، وعلمية ، وجمالية ، وخلقية. ومأساة الحياة الاسلامية اليوم هي مأساة الردود الاسلامية على هذه التحديات .

والردود متعددة تعددَ التحديات، وتعددَ الاحوال التي فاجأت بها الحياة العصرية دار الاسلام. فللحياة العصرية ، التي انطلقت من اوربا الغربية في القرن الخامس عشر، وسرت منها الى جميع انحاء العالم ، ظواهر مختلفة ، ولكن لها روحا واحدة : هي روح التحدي لكل ما هو قديم . وللاسلام ظواهر مختلفة ، ولكن له في العصر الحديث روحا واحدة : وهي روح الاستغراب تجاه الجديد . ومعضلة الاسلام العصرية الاولى ، هي معضلة الثقة فيما هو جديد ، واستساغته ، والتكون على ضوئه تكونا جديدا . وقابلية الاسلام للحياة رهينة بقدرته على هذا التجدد الكياني . فاذا اظهر الاسلام هذه الطاقة التجددية ، بقي ، وظل له دوره الخلاق في تجديد الحياة الانسانية ، وتقدم الفكر الانساني . وان لم يظهرها تجاوزته الحياة ، واصبح تراثا من تراثات الامس بدل ان يكون حقيقة حية من حقائق اليوم ، او حركة « خلاقة » من حركات الغد .

وجوهر الاسلام ، كجوهر كل دين سماوي، هو الاعتقاد بحقيقة ازلية تعلو حركة الزمان بين الامس واليوم والغد . فالزمان الاسلامي زمان روحي ، ليس له اول وليس له آخر . وهذا هو المعنى الحقيقي للاعتقاد بالله ، وبخلود الروح ، وباليوم الآخر . فالله ، لا الزمان ، هو الاول والآخر . والله السرمدي هو اكبر من كل شيء ، تسع كينونته اي رحمته كل شيء ، ويضيق عنها كل شيء . وله المثل الاعلى المحب في السماوات والارض . وهو فريد : « ليس كمثله شيء » . وكل الظواهر المتغيرة امام اعيننا تعبيرات حسية خادعة عن قدرته الخالقة . فهو « خالق كل شيء » . وكل شيء يتغير ويصير ، وهو كائن لا يصير ولا يتغير ابداً . « واليه المصير » .

والروح العصرية هي روح هذا التغير . والروح الاسلامية خاصة ، والروح الدينية عامة ، هي روح الغيب الذي لا يتغير ابدا . الروح الاسلامية كينونة ، والروح العصرية صيرورة. وهذه الروح منطلقة في اكتشاف قوانين الصيرورة والتغير، متجاهلة ما لا يتغير، جاحدة له او ساخرة منه . وليس هذا التحدي العاتي بجديد كل الجدة في تاريخ الاسلام او تاريخ التدين. فالقرآن يتبئنا بان الدهريين تصدوا لمحمد معلنين ان لا شيء الا الدهر ، وانه هو وحده الذي يُهلك ويحي ويميت . ويخبرنا القرآن ايضا ان الطبيعيين جابهوا ابراهيم بالنار والقمر والشمس ، فلما رآها تأفل ، اي تتبدل بين ظلمة ونور ، قال : اني لا احب الآفلين .

وهؤلاء الدهريين والطبيعيين اسماء اخرى قديمة وجديدة ، فهم حينا ماديون ، او

حسيون ، او زمانيون ، او تاريخيون ، او تطوريون ، او تقدميون ، او ديالكتيكيون ، او ذرائعيون ، او وجوديون، او ظواهريون، او مناطقة ايجابيون : ولكنهم يستوون جميعا في التوقف عند ظواهر التغير، ومعالم الوجود ، ونواميس الحركة، والتنكر للذات او الجوهر الذي يقوم وراء هذا التغير ، ويظل كما هو كائنا وموجودا بذاته وان تغير كل شيء .

فالايمان بالله هو في جوهره رؤيا هذا الحق العلوي، وتسليم بفعله في كل ما هو موجود. فهو تحرر من الظاهر والمتغير والمتعدد، وتحرر من الزمان والمكان، وتسليم بالمطلق الذي لا يحده شيء . وما دامت هذه الرؤيا ملء النفس ، ونور الحياة ، لم يعد يرى الانسان ذاته الا من خلال الذات الفريدة المطلقة ، اي من خلال الله ، فيعبده و كأنه يراه ؛ فان لم يكن يراه ، فان الله يراه .

وهذه النزعة الى التحرر من النسبي والمتغير والمتعدد ، المنبثقة من الشوق الى المطلق والواحد الازلي ، هي نزعة الروح الاسلامية ، وميزة الروح الساميّة ، التي تعبر عنها الرسالات التوحيدية الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام . وهي في نظر الاسلام نزعة طبيعية للروح الانسانية . وهي تفسر قوله تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وكان الاسلام جاء كثورة روحية جديدة ، تؤكد الايمان بالوحدانية ، وتحررها من اية شائبة اعترتها . ويبدو هذا التأكيد في ركن الاسلام الاول وقاعدته الاساسية : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . ففي هذا التأكيد نفي لحقيقة كل ما ليس بواحد ، وشهادة بحقيقة الواحد ، وشهادة برسالة محمد للتذكير بهذه الحقيقة .

ولقد بنت الرسالات التوحيدية الثلاث اديانا ثلاثة ، وانشأت ثقافات وصنعت حضارات ، كان آخرها واحدثها الحضارة التي ازدهرت منذ القرن السابع الميلادي في ظل الديانة الاسلامية . ويمكننا ان ننظر الى هذه الحضارة من اية زاوية اردنا ، معجبين او منتقدين. ولكن الحقيقة التي لا يمارى فيها، هي انها آخر محاولة حضارية قامت باسم الله، ونادت بان منطلق الانسان منه ومعاده اليه ، واستهدفت التحرر الروحي ، الذي تطلعت اليه الروح الساميّة ، واستشرقته الروح الانسانية .

ولا يمكن ان تفقه روح هذه الحضارة، ولا ان تقيّم تقييما صائبا، ولا ان تقدر التحديات التي تواجهها بها الحياة العصرية ، الا اذا فهمت حقيقتها هذه فهما كاملا . فنحن معها منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، تجاه حضارة تتحرك حقا او باطلا باسم الله والوحي والشرع الالهي . ونحن منذ القرن الخامس عشر مع اوربا الغربية في محاولة حضارية جديدة، تنطلق باسم الانسان، وتتحرك بوحي العقل، وتنظم امرها بهدي القانون الوضعي . وليس معنى هذا ان الحضارة الاسلامية لم يكن فيها انسانيون وعقلانيون

ووضعيون . فقد كان منهم كثيرون بين الادباء والعلماء والفلاسفة والمتصوفة . ولكنهم لم يطبعوا حضارتهم بروحهم ، ولم يستطيعوا ان يغيروا طابعها الالهي . كما انه لا يعني انه ليس للحضارة الحديثة ، في نماذجها الاوربية والامريكية واللاتينية ، قديسون وزهاد ولاهوتيون ومتدينون ، ولكنهم لم يستطيعوا هم ايضا ان يغيروا من طابع حضارتهم العقلاني العلمي .

تحدي التقابل بين روحين وطابعين

ولذلك فان التحدي الاول والاكبر ، الذي تواجه به الحياة العصرية الاسلام ، هو تحدي التقابل بين روحين وطابعين : روح الاسلام الالهية وطابع حضارته الديني ، وروح الحضارة الحديثة العقلانية وطابعها العلمي. وهاتان الروحان هما في حالة صراع في نفس كل مسلم منذ ان ابتدأ التفاعل بين الحضارتين في نهاية القرن الثامن عشر . ونجمت من هذا التفاعل ازدواجية توترية في الشخصية الاسلامية المفكرة ، ولدى الخاصة من المسلمين. فهذه الشخصية تعيش بالضرورة نسق الحياة العصري، ولكنها تعتقد بالوراثة وتأثير البيئة نسق التفكير الديني. واما كثرة الشعب ، فانها ما تزال آنس بالنسق التقليدي منها بالنسق العصري . فنشأت عن ذلك هوتان : هوة في نفس المتفكر المسلم بين اعتقاده الديني وسلوكه الحياتي ، وهوة في المجتمع المسلم بين الخاصة المتفكرة والعامة المؤمنة .

وفي هاتين الهوتين علل كثيرة لما نعانيه من تهافت كياني في كل مجتمع من مجتمعاتنا الاسلامية من الهند الى مراكش . وما لم تنطلق الشخصية الاسلامية متحررة من هاتين الهوتين، ومنعتقة من كل ما يحوم حولها من عقد، ومسترجعة وحدتها الذاتية الكيانية، فان حركة سلوكها ستظل آلية ببغائية اكثر مما هي حركة روحية دافقة خالقة كما كانت في صدر الاسلام .

ولا يكفي التحرر السياسي وحده للتحرر من هاتين الهوتين، والانعتاق من هذه العقد؛ فانطلاق الاسلام التحرري السياسي ، منذ الحرب العالمية الاولى حتى الآن، انطلاق رائع. فلم يكن للاسلام بعد نهاية تلك الحرب سوى خمس دول مستقلة . ودوله المستقلة المشتركة الآن في الامم المتحدة خمس وعشرون . واذا قارنا قوة هذه الدول المادية بقوة الدول التي كانت مسيطرة عليها ، فاننا هنا امام معجزة تحررية . ولكن هذه المعجزة ما تزال تعتريها شوائب كثيرة . فاطراف الجزيرة العربية ، وهي مهد الاسلام وموطن ثروته المادية الجديدة ، ما تزال بحاجة الى المزيد من الاستقلال . وفلسطين هي اليوم اسرائيل . ولن يكون استقلال اية دولة عربية او اسلامية حقيقيا حتى تعود اسرائيل فلسطين من جديد. ثم ان جميع الدول الاسلامية المستقلة واقعة في صف التخلف . فليس بينها دولة واحدة يزيد مستوى دخل الفرد فيها عن مائتي دولار . وليس بينها دولة واحدة ترتفع نسبة

المتعلمين فيها عن الخمسين بالمائة . وليس فيها دولة واحدة استوى نظام الحكم فيها بعد استواءً عقلانيا تناوبيا مستقرا. وليس بينها دولة واحدة تشارك بعد مشاركة خلاقة في التقدم الحضاري والعلمي الحديث .

وهذا التخلف هو اشد خطرا بعد الاستقلال منه قبل الاستقلال. لان له قبل الاستقلال مبررات يؤخذ عليها الاستعمار ، ولكن له بعد الاستقلال عللا قد يؤاخذ عليها الاسلام . وتبدو بعد الاستقلال كل امة بما كسبت رهينة. والاجيال الجديدة التي تهولها حالة التخلف، وتروعها وثبات مجتمعات اخرى نحو التقدم، تتطلع لبلوغ الغاية نفسها بالاسلام او بدونه. والذي يعنيها هو تحقيق التقدم المنشود ايا كانت الطريق اليه . والنماذج الحية لما صنعت اجيال اخرى في اوربا وامريكا وروسيا والصين تحفزها للحاق بالركب الحضاري المتحرك باقصر واسرع مختصر ممكن . وحركة الحضارة اليوم اشبه شيء بطوفان لا عاصم منه في جبل ولا سفينة .

ولذلك فان تحدي الحياة العصرية للاسلام بعد الاستقلال هو اشد منه قبل الاستقلال. وينطبق هذا علينا نحن مسلمي لبنان ومواطنيه كما ينطبق على جميع مسلمي العالم المتخلف ومواطنيه . والتحدي اشد علينا في لبنان ، لاننا اقرب الجميع الى مواطن الحضارة الحديثة الاولى ، ولان اسرائيل مترصدة في جوارنا ، ولاننا نشارك في وطن واحد مع مواطنين اعزاء بلغوا من التقدم الحضاري الحديث ما لم نبلغه نحن بعد . ويعني هذا اننا بقدر ما نقع في طليعة التحدي، يتوجب علينا ان نكون ايضا طليعة الرد الخلاق على هذا التحدي . ويعني هذا ان علينا ان نمتاز في نوعية الرد ، لا بالنسبة لوطننا لبنان فحسب ، او للعالم العربي كله ، ولكن علينا ان نكون القدوة فيه للاسلام ، ان لم يكن للانسان المؤمن حيثما كان .

ويتوقف هذا الرد على نظرة موضوعية للحضارة وموقف ذاتي منها. والنظرة الموضوعية للحضارة تتراوح بين رأي ابن خلدون وشبنغلر او رأي سوروكين وطوينبي في قدر الحضارة . فللحضارة في رأي الاولين حياة كحياة الانسان : فهي تنشأ وتعيش لفترة ما ثم تموت . فاذا جاء اجلها ماتت ككل عضوي ، كما نشأت اول الامر ككل عضوي . واذا صحت هذه النظرة ، فاننا لا نكون اكثر من شهود للحضارة الاسلامية ، وهي في النزع الاخير من احتضارها الحتمي .

واما سوروكين وطوينبي ، فانهما يميزان بين اطار الحضارة الاعتقادي وبنيتها المادية . والاطار الاعتقادي قابل للتجديد ، مهما كان التغير البنيوي الذي تتعرض له . والمهم هو ان يعي ابناء الحضارة حاجة اطارها الاعتقادي الى التجديد . وان تتوفر لها نخبة خلاقة تستطيع احداث هذا التجديد . وهذا الوعي ممكن اليوم في ظل الحضارة الحديثة ، اكثر

مما كان في ظل اية حضارة اخرى في الماضي ، بسبب التواصل الفكري والتفاعل المادي بين جميع المجتمعات . ولذلك تستطيع الحضارة ان تنهل من ينابيعها هي ، وينابيع الآخرين الروحية والفكرية ، نهلا جديدا يساعدها على تجديد اطارها الاعتقادي وتغيير وجهتها الروحية واحياء طاقتها الخلاقة .

ونعرف جميعا ان بنية الحضارة الاسلامية التنظيمية انهارت وما تزال الى مزيد من الانهيار . فبنيتها السياسية خلافية او سلطانية . والخلافة والسلطنة زالتا من الوجود ، وحلت محلها الجمهوريات والملكيات ببنيتها القومية . وبنيتها القانونية شرعية ، والشرع لم يعد يطبق منه سوى احكام الاحوال الشخصية ، تراعى في بلاد ولا تراعى في بلاد اخرى. وبنيتها الاقتصادية اعتمدت الطاقة البشرية ، والاسلام كله يجاهد اليوم في سبيل تبني الطاقة الآلية . وبنيتها المالية ضد التسليف والتأمين بالفائدة ، وجميع الدول الاسلامية تتطلع الى النمو عن طريق هذا التسليف والتأمين. وفنون العمارة الاسلامية تنسخها في كل مكان فنون العمارة الحديثة . وسائر الفنون الاسلامية بمختلف تعبيراتها تنازعها الحياةَ الفنونُ الحديثة بمختلف صورها .

ثم ان البنية الاجتماعية الاسلامية تجتاحها الآن تغييرات اساسية لم تعرف مثلها من قبل . فقد بدا الاسلام في عهد الرسول كرسالة لتحرير المستعبَد والمستضعَف والمستغَل والمحروم والمظلوم . واراد الاسلام ان يزول اي شكل من اشكال استغلال الانسان لاخيه الانسان . وكان المستضعفون اول من لبى الرسول ، ولبى الدعوة لدى انطلاقها . وكان اهل الجاه واليسار الدّ معارضيها . وما لبثت الفتوحات ان قلبت هذا الوضع ، وهيأت للمستغلين ان يجعلوا منه اداة لتبرير استغلالهم وتوطيد سلطانهم ، بدل ان يكون ، كما هي حقيقته ، رسالة تحرير المستضعفين. فازدهرت في ظل الوضع الجديد الجبرية والاستبدادية والاقطاعية والاستغلالية ، التي جاء الاسلام لتحرير الانسان منها . واصبح في المجتمع الاسلامي ذروة حاكمة مستأثرة ، تداولها العرب والفرس والبربر والاكراد والاتراك ، وقاعدة شعبية مكدة منتجة تستمر معيشتها كما هي ، كيفما تغير الحكام وتقلبت الاحداث. ولئن ضمت الجميع اخوّة الهية اسلامية رائعة ، الا ان مغانم هذه الاخوّة كانت للقلة ، ومغارمها للكثرة . ولم تقم طبقة متوسطة ، لتصل ما بين الاثنتين ، وتضيق الفروق بينهما

وهذه البنية الهرمية ، التي ليست من روح الاسلام في شيء ، تنهار هي ايضا الآن تحت وطأة الحضارة الحديثة . وهذه الحضارة ، سواء احببناها او كرهناها ، هي بتواصليتها المعجزة ، وصناعيتها المحتاجة دائما للسوق الاوسع ، حضارة القاعدة الشعبية المستهلكة ، بقدر ما هي حضارة الخاصة المنتجة . وقد فرضت عليها هذه التوسعية الاقتصادية ، كما فرضت عليها متطلبات التعبئة العسكرية العامة ، ان تسلم بحق الانتخاب او الاقتراع العام

وحق التعليم العام وحق التنظيم والتمثيل العمالي .

وهذه التغييرات الاساسية كلها تقوض الآن طوعا او كرها البنية الاسلامية التقليدية ، وتقيم مقامها البنية العصرية ، وتحرك المستضعفين في الارض في طلب مكانهم الواجب لهم في حياة المجتمع . وتعطي المتوسطين دورا قياديا وتنظيميا لم يكن لهم من قبل . والسؤال التاريخي الآن ، هو ما اذا كان الاطار الاعتقادي الاسلامي لاحقا البنية المتهافتة عاجلا او آجلا ، او انه قادر على التجديد بحيث يصبح هو ايضا الاطار الحديث للبنية الحديثة . وقد يبدو هذا السؤال غريبا بعض الشيء ، لان الاسلام اتيح له ، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن ، مجددون ومصلحون امثال محمد بن عبد الوهاب والامير عبد القادر الجزائري والافغاني ومحمد عبده والسنوسي والكواكبي ومحمد اقبال وزيا جوكلب ومحمد خالد محمد ومالك بن النبي وغيرهم . وقد حاول جميع هؤلاء تفسير تعاليم الاسلام وفقا لاحواله الجديدة ، واجتهدوا في تكييفها على درجات متفاوتة حسب متطلبات الحياة الحديثة .

تجديد في الاطار الاعتقادي

وكان من نتائج اجتهاداتهم تشجيع الاسلام على الاتجاه منذ القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية نحو الديمقراطية الليبرالية ، والاتجاه منذ الفترة التي تلت تلك الحرب نحو الديمقراطية الاشتراكية . فاصبحت اكثر الدول الاسلامية تتراوح بين الاتجاهين ، آخذة « بديمقراطية موجهة » في اندونيسيا ، و « ديمقراطية اساسية » في الباكستان ، و « ديمقراطية اشتراكية » في الجمهورية العربية المتحدة والجزائر وسوريا والعراق ، و « ديمقراطية سلفية » في السعودية ، و « ديمقراطية كمالية » في تركيا ، و « ديمقراطية ليبرالية » متنوعة الصور في البلاد الاخرى . وتفادت حتى الآن نهجا آخر هو « الديمقراطية الماركسية او الشعبية » . والحجة في ذلك هي توافق الاسلام مع الليبرالية والاشتراكية ، وتناقضه مع الماركسية .

ولا ريب في ان تبني الليبرالية فالاشتراكية يعني بعض التجديد في الاطار الاعتقادي الاسلامي . ولكنه تجديد جزئي وشكلي اكثر مما هو كلي وجوهري . وما يزال هذا التجديد دون تحقيق الغايات التقدمية المنشودة . فهل يعني ذلك انه لا بد من التجديد الكلي ؟ ان مثلي روسيا والصين هما مثلا التجديد الكلي . فقد استبدلتا اطارهما العقائدي استبدالا كليا بايديولوجية علمية حديثة ، لتشاركا مشاركة خلاقة في التقدم الحضاري الحديث . ومثل الهند ، ما يزال كمثل الاسلام ، تسلك سبيل التجدد الجزئي ، ولكنها ما تزال دون المشاركة المنشودة . واليابان سلكت السبيل نفسه ، وهي الآن في طليعة

التقدم الصناعي . فاي مثل يستدعي الاسلام ؟ المثل الروسي او الصيني او الهندي او الياباني؟ او انه سيكون له مثله الفريد الذي يختلف عن كل ما سبق ؟ وما هو شأن الاسلام وشأن المثل الاوربي الغربي او المثل الشمالي امريكي ؟

ان لهذه الامثلة والنماذج والتجارب التقدمية ما تتفق فيه وما تختلف فيه . وقد تعودنا ان نقول باننا نريد للاسلام ان يتوسط بينها ، لان الله جعلنا امة وسطا « لنكون شهداء على الناس ». ولان الرسول علمنا ان خير الامور الوسط ، ولان موقعنا الجغرافي متوسط ، ولان تجربتنا الحضارية تجربة توسط ما بين الشرق والغرب ، او ما بين شرقي آسيا وغربي اوربا ، او ما بين العقلانية اليونانية الغربية وما بين الحلولية الشرقية الاسيوية . وقد آن لنا ان نؤكد على التوسط الخلاق لا التوسط المقلد او الملفق ، اذا شئنا ان نصون حريتنا وعبقريتنا واصالتنا وطرافتنا .

ويعني هذا ان الاسلام متأثر بحكم التواصل الحضاري بجميع هذه النماذج ، دون ان يصبح ايا منها . والتأثر الواعي هو غير المحاكاة العمياء . ويقضي علينا هذا النوع الخلاق من التأثر بفهم حقائق هذه النماذج فهما كاملا ، وتبين خصائصها المتفقة والمختلفة . واهم ما يمكن ان نلم به عنها هنا ، هو انها كلها تجارب انسانية ، تعبر عن اعتماد الانسان طريق الخطأ والصواب الى الغاية التي ارادها له الله . وتلتقي كلها الآن في اعتماد ما تعتبره المنهج العلمي الانمائي للتقدم ، وتستهدف من هذا التقدم تحسين وتكثير معدل انتاجيتها ، وترمي منه الى رفع المستوى المعاشي لشعوبها ، وتوزيع حاصل الانتاج توزيعا عادلا بين مواطنيها. وتختلف في طرق هذا التقدم وغاياته الاخيرة اختلاف مبادئها التراثية ، واختلاف مواقيت انطلاقها . فالسابقون الى الانطلاق يعتمدون التنوعية العقائدية والتنظيمية ، والسبيل الاقناعي التطوري للتغيير ، ويستمسكون بالحرية الفردية والملكية الفردية . والمستجدّون في الانطلاق يعتمدون التوحيد العقائدي والتنظيمي ، ويسلكون النهج الثوري العنفي للتغيير ، ويضحّون بالحرية الفردية والملكية الفردية في سبيل الحرية الجماعية والملكية الجماعية . واشدّ هذه النماذج في ثوريته الآن هو النموذج الصيني ، بسبب جدة انطلاقه ، وبتأثير المرارة التي خلفها ما عاناه من امتهان الغير وحرمان الماضي . ولكن توازن الرعب النووي يفرض عليها كلها بعض الاعتدال في نهجها ، لان اختيار الانسان لم يعد في ظلّه بين نظام وآخر ، بل بين البقاء او الفناء .

ونحن على يقين ان سبيل الاسلام التقدمي سبيل اقناعي لا قسري . وان القسر في الاسلام ضرورة عابرة . كما يبدو ذلك في قوله تعالى : « لا اكراه في الدين » ، او في قوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . والاسلام يقر التنوعية العقائدية والتنظيمية : « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » ، ويتخذ حرية الذات البشرية

ومسؤوليتها قاعدة الانطلاق : « كل نفس بما كسبت رهينة » . والاصل في الاشياء الاباحة . ويصون الاسلام الملكية الفردية ، ويجعل منها وظيفة اجتماعية : « وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ». ويرى الاسلام الدولة اداة عارضة لسعادة الفرد والجماعة ، لا غاية في ذاتها . ويرى الانسان الفرد مع الجماعة والجماعة مع الانسان والفرد ، موازنا بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات موازنة تحفظ للجماعة تماسكها واخوّتها ، وتصون للفرد حريته وعبقريته الخلاقة .

وبديهي ان هذا التحليل هو تحليل لكل نموذج في سياقه الخاص ، اكثر مما هو تحليل لها في السياق الحضاري العام الجامع لها كلها . كما ان ملاحظاتنا الاسلامية عليها ، هي ملاحظات اجتهادات مبدئية شخصية . ولذلك يتعين علينا ان نستعرض ردود الفعل الاسلامية العامة للتحديات الحضارية المعاصرة في سياقها العقلي والسياسي والاقتصادي والثقافي ، لنخلص منها الى عاقبة هذا الالتقاء بين قديمنا المتجدد وجديدهم المتغير .

ونعني بالسياق العقلي رفض الحتمية التاريخية ، روحية كانت او مادية ، والاعتراف بقدرة الانسان اي الاسلام على الاختيار . والسياق السياسي يفترض صيرورة هذه القدرة حقا يؤكده الاستقلال ، وتصونه المبادىء التي يقوم عليها المجتمع الدولي ، ويعززه توازن الرعب النووي القائم بين الفريقين اللذين يتنازعان الآن السيادة على العالم . والسياق الاقتصادي يفترض توفر الموارد الانسانية والمادية للاسلام التي تمكنه من بلوغ المستوى الانمائي والمعاشي المنشود . والسياق الثقافي ، وهو الاعقد ، هو سياق ما ظهر حتى الآن من ردود فعل فكرية اسلامية للتحدي الحضاري الحديث .

ويمكن ايجاز ردود الفعل هذه بالاتجاهات الاربعة الرئيسية التالية : اولا ، الاتجاه المحافظ الذي لا يرى في الحياة العصرية الحديثة الا الخطر على النسق الحياتي الاسلامي، وعلى مثالية الاسلام وكليته ووِحَده ؛ ثانيا ، الاتجاه التوسطي الذي يرى في الحياة العصرية خيرها وشرها ، ويوصي بالاقبال على خيرها وتفادي شرها ، وينادي بالتوفيق بين خيرها وخير الاسلام ؛ ثالثا ، الاتجاه المسترسل مع الحياة العصرية ، الذي يرى ان قوانين حركتها هي احدث قوانين حركة الانسان ، ولذلك يرى الاخذ بهذه القوانين اخذا كليا والاكتفاء بالاسلام كعقيدة شخصية ضميرية تصل ما بين الاسلام وربه ؛ رابعا ، الاتجاه المتجاوز لهذه المواقف الثلاثة ، الذي يرى ان تطور حركة التاريخ نسخت الاسلام واي دين آخر نسخا نهائيا ، ولذلك لا بد من اعتماد موقف علمي عقلاني تجاه الحياة العصرية، وهي احدث وجه للحياة انتهى اليه تطور الانسان التاريخي على الارض . ومقولات هذا التفكير هي التاريخ والوجود والعقل والمجتمع والانسان . واما مقولات الله والجوهر والروح والخلود فهي في نظر هذا الاتجاه غير ذات موضوع .

وهذه اتجاهات رئيسية اربعة ، نادي بهـا مفكرون او مصلحون او ثوريون مسلمون منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن . وكان لها فعلها في حياتينا النظرية والعملية. وكان لها تأثيرها المباشر او غير المباشر في صراعنا مع الحياة العصرية ، وتفاعلنا مع الحضـارة الحديثة . ونحن نعتقد ان هذه المواقف الاربعة هي دون ما بلغه تطور الانسان الحضاري الراهن . وذلك لان هذه المواقف كانت سائغة في الوقت الذي كان فيه للحضارة الحديثة ابعاد قومية او جنسية او قارية او طبقية محدودة . ولكن الحضارة لا تتخطى الآن هذه الابعاد فحسب ، بل انها تتخطى ابعادها الارضية مرتادة ابعادا كونية جديدة . ولذلك فهي الآن حضارة كل انسان ، احب او كره . وهي حضارة المسلم بقدر ما هي حضـارة المسيحي ، وحضارة الافريقي بقدر ما هي حضارة الاوربي ، سواء اتم وعينا لهذه الحقيقة ام لم يتم بعد . انها حضارة كل انسان بالقوة ، وما يزال على عقله ، وارادته وامكاناته ، ان تصيرها حضارته بالفعل .

وليس بصحيح ان مقومات هذه الحضارة المادية او العلمية او التقنولوجية هي مقومات عامة ، وان مقوماتها العقائدية هي مقومات خاصة . بل ان لجميع هذه المقومات في نفس الوقت عموميتهـا وخصوصيتها . فالجامعة والمختبر والمصنع والآلة والقـاطرة والسيارة والطائرة والصاروخ هي كلها من بنات الحضارة الحديثة . كما ان العلمية والعقلانية والجمالية والقومية والديمقراطية والليبرالية والاشتراكية والماركسية والفاشستية والنازية هي ايضـا من بناتها . والناس ، على اختلاف بيئاتهم واديانهم وثقافاتهم ، يتنافسون ، كل على طريقته ، في طلب ثمرات هذه الحضارة الايديولوجية ، مثلما يتنافسون في طلب ثمراتها التقنولوجية . ويؤكد هذا ان هذه الحضارة بلغت اليوم درجة من العموم لم تبلغها اية حضارة من قبل .

ونحن المسلمين اولى الجميع بان نرى هذه الحضارة حضارتنا نحن . لان بناتها الاوائـل يعتبرونها وليدة الروح المسيحية والعقلانية اليونانية والقانونية الرومانية في الروح الاوربية المتفتحة الثائرة . والروح المسيحية هي ابنة الوحدانية الساميّة ، التي ولد منها الاسلام . وكنـا نحن اول من ادخل العقلانيـة اليونانية الى اوربا عن طريق الرشدية اللاتينية ، اي بواسطة الاتباع الاوربيين لفيلسوفنا ابن رشد . والروح التجريبية العلمية الاوربية كان رائدها الاول روجر بيكون ، وهو رسول التجريبية الاسلامية العلمية الى اوربا .

والفاصل الحقيقي بيننا وبين الحضارة الحديثة ليس فاصل الاجزاء المكونة ، بل فاصل الكل المتكون . فقد التقت عندنا الوحدانية الساميّة والعقلانيـة اليونانية وعلمية الشرق الادنى وحلولية الهند ، فكان نتاجها حضارة الهية الروح وخلقية النزعة . والتقت الوحدانية الساميّة والعقلانية اليونانية والقانونية الرومانية في النفس الاوربية ، فكان نتاجها حضارة

علمية الروح وجمالية النزعة. فما هو مصير التقاء هذين الكلين الحضاريين في النفس الاسلامية والحياة الاسلامية المعاصرة ؟ اهو التفاني المميت، او التعايش المتوتر، او التآلف التلفيقي، او التكامل التجددي الخلاق ؟

يبدو لنا الموقف الحضاري الانساني الراهن على ضوء معجزة التواصل العصري اقرب الى التكامل التجددي الخلاق منه الى اي موقف آخر . ويعني هذا ان على الاسلام ، وهو يجدد بنيته الحضارية ، ان يعاود اكتشاف روحه وجوهره الحقيقيين . وان على الحضارة الحديثة ، وهي تنشر بنيتها العصرية في العالم كله ، ان تجدد روحها بالتفاعل مع الروح الحقيقية لكل حضارة تصادفها في طريقها. فتنبثق عن ذلك روح حضارية جديدة، ليست بشرقية ولا غربيـة ، ولكنهـا روح الهية انسانية . وينشأ جو حضـاري جديد يلتقي فيه الله والانسان من جديد بحرية ومحبة . وهذا هو اللقاء الذي اراده الاسلام ، وهذه هي الروح التي استهدفها ، ونشد تحقيقها في حضارته، وان لم يبلغ منها كل ما اراد.

فالانسان هو في القرآن خليفـة الله على الارض ؛ وهو مخـلوق في احسن تقويم ؛ وهو المكرم على العالمين ؛ وهو الكائن الوحيد الحر في ان يختار الاعتقاد الذي يشاء ؛ وهو الوحيد الذي يستطيع ان يبلغ بطبيعته وعقله وحواسه الله ، اي الحقيقة . ومـا الوحي الا تذكرة له ان خذلته الذاكرة ، او هداية له ان اخطأته الحواس ، او اضله العقل .وهذا الوحي هو دعوة للانسان للبحث اللانهائي عن الحقيقة . وكل ما يبدو له منها يجب ان يكون حافزا له لطلب المزيد . لانه لم يؤت من العلم الا قليلا . والحقيقة ينشدها الانسان في معجزات الخلق الالهي، اي في نفسه وتاريخه وآيات الطبيعة الخارقة . وكل هذه الآيات براها الله لخير الانسان وسعادته . والانسان اخ لكل انسان ، لان الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة . والانسان يواصل كل انسان ، ويحاور من يخالفه في الرأي والمعتقد بالتي هي احسن . ويدفع حتى عدوه بالمحبة ، ليجعل منه وليا حميما . وهو متواص مع كل انسان آخر بالحق والصبر ، ومتعاون معه في سبيل حياة افضل لكل انسان في كل زمان وكل مكان . وهو رهين بما كسب، لانه لا تزر وازرة وزر اخرى . وللمرأة انسانية الرجل ، ولها مثل الذي عليها بالمعروف؛ وهي مثله نفخت فيها روح الله ؛ وهي مثله تجاهد جهادا لا ينتهي ابدا لتحسين النفس وتقدم الحياة ، لان « الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم»، ولان هذا هو الجهاد الانساني الاكبر. والعمل لا السطوة هو صانع الحياة الاولى، وهو سبيل لتأنيس الطبيعة ، ولتحقيق انسانيته ، ولتوعية ذاته ، اي للاقتراب من الله .

هذه هي ملامح الصورة القرآنية للانسان . وهي صورة لم تجسدها بعد الحضارة الحديثة ولا الحضارة الاسلامية ، ولا اية حضارة قبلهما. ولذلك فهي ما تزال صورة مثالية للمستقبل . ووجودها ينبهنا الى وظيفة الدين الرئيسية ، وهي ان يتحدانا برؤى ومثـل

عليا الهية وانسانية نقاربها اكثر مما نحققها تحقيقا كاملا . وهذه الصورة تكمل ما في الحضارة الحديثة والحضارات الاخرى التي تتفاعل معها من صور اخرى للانسان . ونحن مطالبون الهيا بان نجسد هذه الصورة في جميع تشريعاتنا وتنظيماتنا الجديدة . ونحن مدعوون انسانيا للعمل لانتصار هذه الصورة في كل تشريع وتنظيم انساني .

ويعني هذا ان الانسان الذي نتطلع اليه ، ويفرض علينا القرآن ان ننشده في جو حضاري جديد، هو : اولا، انسان يؤمن بالله ايمانا عميقا وخلاقا ، متخذا اياه مثله الاعلى للكمال ، وملتزما بان تكون حياته معراجه لهذا الكمال ؛ ثانيا ، انسان يؤمن بالحقيقة ، باحثا بحثا لا نهائيا عنها كضالة منشودة ، بنفس تفتحه لما اهتدى اليه الآخرون من طرق متنوعة للاقتراب منها ؛ ثالثا ، انسان تغمر المحبة علاقته بالكون وبكل انسان آخر ؛ رابعا ، انسان يؤمن بحريته وحرية كل انسان ، ويصون كرامته وكرامة كل انسان ، ويقدس حقه في الحياة وحق كل انسان؛ خامسا، انسان يؤمن بالعقل ايمانه بالله، ويشعر بطمأنينة التكامل لا بقلق التنازع بين ايمانه وعقله ؛ سادسا ، انسان يؤمن بمسؤولية الانسان في اكتشاف كونه وتنظيم مجتمعه ، ويوقن ان هذه المسؤولية هي امانة الله الكبرى للانسان ؛ سابعا، انسان يؤمن بحرمة الذات الانسانية الفردية، ويعتقد بان غاية كل تنظيم اجتماعي تفتيح امكانات هذه الذات الخيرة والمبدعة ؛ ثامنا ، انسان يؤمن بان الانسانية كلها يجب ان تكون ديمقراطية روحية كبرى ، تسود فيها المحبة والحرية والعدالة ، ويلتزم بان يكون وطنه نموذجا حيا لهذه الديمقراطية. وقوام هذا الايمان قول الرسول : « الخلق كلهم عيال الله ، واحبهم اليه انفعهم لعياله » .

ويقضي التدرج في المسؤولية على المسلم ان يكون اولا اسوة الالتزام بهذه الصورة القرآنية للانسان في وطنه . ويقضي عليه بان يبذل كل جهد لازم لتجسيم هذه الصورة في سلوكه الفردي والجماعي ، وفي مؤسسات مجتمعه الخاصة والعامة . فليس الاسلام تعايشا انعزاليا، ولكنه تواصل وتعاون وتضامن في السراء والضراء. وهو تواصل ملتزم بخير كل عربي ، لانه ملتزم بخير كل انسان .

وهذا الالتزام الروحي التواصلي هو التزام بتحسين نسق الحياة الانساني. ومسؤولية اللبناني المسلم ان يكون طليعة هذا التحسين لخيره وخير مواطنيه كافة . ومسؤوليته الاولى ان يكون نموذج التفاني والتضحية والكفاءة والجرأة البناءة في وطنه . فيجسم بذلك الروح الاسلامية الحقة ، ويتحول الى رائد للالتقاء المنشود بين روح الله وروح الانسان في جو حضاري جديد . ومن اولى منه ، وهو ابن حضارة الوحي وربيب حضارة العقل ، ان يكون مثل هذا الرائد ؟